

واختلجت يداه في يديها، فدفعهما إلى كتفيها، ومال عليها بوجهه، فأفلتت من بين يديه، وهي تقول مؤنّبة: وكنت حريّاً أن تُنشد:

قومٌ إذا حاربوا شدُّوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

ووثبت إلى الدار وخلفته في الفناء مبسوط اليدين، قد ذهل عما حوله من الزمان والمكان والناس، ثم ترامى على بعض ما ازدحم في الفناء من المتاع، وأخفى وجهه في راحتيه.

الناس جميعاً في شغلٍ بالتهيو لتلك الحملة العظيمة التي يُجهّز لها مسلمة، كل ذي قوةٍ من شباب العرب يرجو أن يكون له شأن في هذه المعركة ...
إنَّ أبا أيوب الأنصاري يدعو ضيفانه إلى المأدبة العظيمة في رحاب قيصر.
القصاص في مساجد الأمصار قد تأطرَّ الناس حولهم حلقات حلقات، يستمعون إلى قصصهم مشوقين، يود كل منهم أن يطير إلى الميدان بجناحين ...
الشباب والكهول يهيئون أنفسهم لرحلة طويلة المدى بعيدة الأمد، قد احتقبوا ما قدروا عليه من زادٍ وعتاد وكسوة تصلح للشتاء والصيف ...
نساء الأمراء والسادة ينفضن الطيب والحليَّ عن غداثرهن يجعلنها في بيت المال أعطياتٍ للجند ...

الزوجات والأخوات يغزلن وينسجن ويخبزن ويُقدِّدن ليهيئن لأزواجهن وإخوتهن كسوة ثقيلة، وغذاء طيباً يدفع عنهم برد الشمال القارس ...
الأمهات يُصلِّين ويدعون ويصنعن لأولادهن الرُقَى والتمايم.
الكواعبُ الحسنات — وغير الحسنات — قد خَطَّ الدمعُ على وجناتهن خطوطاً لم تزل مبتلةً أبداً.

الصبيان والبنات في فرحٍ ومَسَرَّة بما يرون حولهم من مظاهر النشاط، لا يكادون يدرون بما ينتظرهم من أيام القلق والهم والوحشة ...
الأيامى والأرامل يبكين أزواجهن، كأنَّ قد فقدنهم منذ هنيئات.